

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث صهيب -رضي الله عنه- حديث الغلام والراهب والساحر ٧

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فكنا نتحدث عن حديث الغلام والساحر، وكان آخر ما تحدثنا عنه هو أن الملك أمر جنوده أن يأخذوا الغلام ويهذبوا به إلى جبل معين، ثم إذا صعدوا وبلغوا ذروته يلقونه من رأس ذلك الجبل إن لم يرجع عن دينه. فدعا الغلام ربه، فقال: اللهم اكتفيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

قال: ((دفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُور...)) والمقصود به السفينة، بعضهم يقول: السفينة الكبيرة، وبعضهم يقول: السفينة الصغيرة، والعجيب أن هذا الملك لم يعتبر حينما رأى الجبل قد رجف، وأن أصحابه قد هلكوا، وأن هذا الغلام قد سلم، فإن ذلك يكون داعياً لكل مريد للحق، أو من في قلبه حياة أن يعتبر بما جرى، كيف يرجف الجبل، ثم يهلك هؤلاء، وينجو هذا الغلام، ثم يأتي إليه كأنه يتهدأ؟، فهذه آية، وأمر خارق للعادة، ومع ذلك لم يحرك فيه ساكناً، ولا زال مصرًا على غيه وباطله، ومحاربة ربه -تبارك وتعالى-، فقال: ((اذهبوا به فاحملوه في قرقور، وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكتفيهم بما شئت، فانكفت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك...)).

جنود الله -عز وجل-، الجبل رجف، والسفينة قد انكفت، وأولادك سقطوا من شاهق فماتوا، وهؤلاء سقطوا في الماء فغرقوا، وهكذا الله -عز وجل- يهلك هؤلاء الظالمين، ويرثي الناس آياته، يريهم آياته تارة بالماء، وتارة برجفان الأرض واضطربها وزلزلتها، وتارة بما يرسله عليهم من الأمراض، والأدواء، وتارة بما يحصل لهم من نقص التمرات، فتصيبهم السنة، إلى غير ذلك مما يوقعه الله -عز وجل- من بأسه وعقوبته للمكذبين.

ونحن لا زلنا نعيش هذا الحدث الكبير الذي يتحدث عنه العالم إلى اليوم، كان بعضهم يسأل عن الجثث التي بالآلاف في سومطرة، يقولون: لم نستطع أن نفعل شيئاً، وكانت لجنة من جميع المؤسسات الخيرية في إندونيسيا من الدعاة، وكانوا مؤسسة للإغاثة، يقولون: لم نصنع شيئاً، فالجثث بالآلاف تحت البيوت الخربة، وفي الشوارع، أصابها العفن مع المياه، واحتلاط مياه الصرف الصحي مع مياه البحر، يقولون: نحن معرضون للمرض إذا دخلنا في هذه الأمكنة، فكانوا يسألون عن إحراق الجثث، هل يجوز أن تحرق جثث المسلمين؟ لأنهم لا يستطيعون الاقتراب منها، فهي بالآلاف، أعداد هائلة، ومن سافر إلى تلك البلاد، ورأى كثافة البشر والسكان فإنه لا يصدق أن العدد الذي يموت أربعة آلاف، أو خمسة آلاف، أو عشرة آلاف، الناس هناك كثرة كثرة، وهذه من آيات الله -عز وجل-، ومثل هذه الآيات لا ينبغي أن توجه غير التوجيه الصحيح، لأن يقول قائل: إن للاقات أرضية، غضب الطبيعة كما يقول بعض المعلقين، كما لا يجوز التخرص فيها بغير علم، كما يقول بعض الجيولوجيين الذين يتكلمون عن الإعجاز، و تستضيفهم القنوات بكثرة هذه

الأيام، يقولون: هذه بداية الزلازل، وتغير نظام الكون، بحيث إن الشمس أو الكرة الأرضية تبطئ في حركتها، فهم يقولون: إن ذلك تدرج حتى تخرج من مغربها، يحصل فيها تأخر تدريجي في الحركة - الشمس -، ثم بعد ذلك تخرج من مغربها.

فنقول: لا، خروجها من مغربها بين الكاف والنون، كن فيكون، فإذا حبسها الله انحبست، ولا تحتاج إلى تراجع تدريجي، ولا تحتاج إلى آلاف أو ملايين السنين، لا يحتاج إلى هذا، في ليلة واحدة يقول لها: قفي، فتفف، ارجعني، فترجع.

قال: ((فانكفت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى...)), انظر إلى ثقة هذا الغلام بمبدئه على حداثة سنّه، ومع ذلك لم يتردد، ولم يرهبه قتل أو لائمه أمام ناظره، ولم يرهبه صعود الشاهق، ولا ركوب البحر وتوسطه، لم يرهبه شيء من ذلك، بل كان يرجع إلى الملك، ويخبره بما جرى.

قال: ((إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلٍ حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرَكَ بِهِ...)) يقول: مهما كررت المحاولات، فإنك لن تستطيع، وكأن الله -عز وجل- ألهمه ذلك، أو أنه رأى فيه رؤيا، المقصود أنه لا يمكن أن يقول هذا إلا بعلم قد بلغه، فلن تستطيع أن تقتلني حتى تفعل ما أمرك به.

يقول: ((قَالَ وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدًا...)) أي: مكان منبسط، مستو، بحيث لا يتعدى على أحد منهم الرؤية والمشاهدة، فجميعهم يشاهد الحدث، فلا يكون فيه التباس أو خفاء أو تُطمر الحقيقة.

قال: ((وَتَصْلِبُنِي عَلَى جَذْعٍ)), الجذع معروف، وهو جذع النخل، ويتحمل غير ذلك من جذوع الشجر، ((ثم خذ سهاماً من كنانتي))، الكنانة هي مثل الكيس الذي يوضع فيه السهام، وتتوسع عادة خلف الظهر، وتتوسع فيها السهام، فيسهل على صاحب النبل أن يأخذها، ((ثُمَّ ضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ)), أي: في وسطها، فهو يعلمه أموراً معلومة، والسهم إنما يوضع في كبد القوس، لكن أراد أن يلقنه طريقة يمشي عليها من أولها إلى آخرها، والعبرة في آخرها.

قال: ((ثُمَّ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغَلَامِ)) والله هو رب كل شيء، وهذا الأمر تتعلق به معانٌ كثيرة، منها: أن هذا الغلام الذي تحدث الناس عن خبره قد استعصى على هذا الملك؛ لأن له رباً يحوطه ويحميه، فلا يستطيع أحد أن يصل إليه.

وأن ذلك الملك قد ادعى الربوبية، فهنا أراد أن يبين ويوضح: بسم الله رب الغلام، وليس ذلك الملك، كما قال السحرة حينما وقفوا أمام فرعون بعدما رأوا آية موسى -صلى الله عليه وسلم- **{قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** [الأعراف: ١٢١-١٢٢]، قد يقول: أنا رب العالمين، أنا ربكم الأعلى، فموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-، هما اللذان كانوا فرقاً بين الناس.

وفرعون لم يعتبر بما حصل للسحرة مباشرة، فقد خروا سجداً لله -عز وجل- مباشرة، وجاء ذلك معقباً بالفاء التي تدل على التعقيب المباشر **{فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}** [الشعراء: ٤٦]، فلم ينتظروا، ولم يقولوا: نتشاور، ننظر، نعقد اجتماعاً، ثم نصدر بعد ذلك بياناً مشتركاً، بل سقطوا مباشرة لما رأوا العصا تتقلب إلى حية، وتبتلع ذلك الحشد الهائل الكبير من الحبال التي تتحرك فأفرزت الناس وأرعبتهم، فقد جاءوا بسحر عظيم، فلم

يعتبر فرعون بهذا المشهد الرهيب، بل كابر وجعل ذلك من قبيل المكر والكيد المبرم بين موسى -صلى الله عليه وسلم- وبين السحرة، لترجوا منها أهلها، يقول: أنتم علمتم مكيدة لإخراج أهل البلد الحقيقيين من أجل الاستحواذ على ثرواتهم ومملكتهم.

وهذا إذا بلغ الكفر بالإنسان إلى درجة كبيرة جداً، واستحكم لا تنفع فيه الآيات والنذر، لكن كفر فرعون فيما يظهر كان أخف من كفر المعاصرين الذين لا تؤثر فيهم هذه الآيات والعبر العظيمة، فيقولون في الزلزال: إنها غضب الطبيعة، وهذا انزلاق في ألواح، فلسفة لا حقيقة لها، لكن فرعون لما أرسل الله عليه تلك الآيات: الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وأرسل عليه الطوفان كانوا يقولون: **{يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّ بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ}** [الزخرف: ٤٩]، بعض العلماء يقول: الساحر يعني: العالم في لغتهم.

{قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَ الرِّجْزِ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٣٤] فكانوا يربعون إذا شاهدوا هذه الآيات، ويختلفون، ويأتون إلى موسى -صلى الله عليه وسلم-، لم يقولوا: هذا انزلاق، وهذه قضية طبيعية، والجراد هذا يتکاثر، ويأتي دائماً من إفريقيا، والدم هو عبارة عن تحول لجزئيات الماء فتحتحول ويتغير لونها مع أشعة الشمس إلى الأشعة الحمراء والأشعة البنفسجية، فيتحول لون الماء إلى أحمر، ثم بعد ذلك هذا من الأشياء الطبيعية.

ولم يقولوا: هذه الضفادع الكثيرة تناست بسبب الأحراس التي حول النيل، فتحتاج إلى مزيد من المبيدات، وجز تلك الأحراس، من أجل أن لا توجد فيها تلك الضفادع فنستريح من المشكلة، فلم يقولوا هذا الكلام، بل جاءوا إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: ادع لنا ربك.

وهذا الملك أيضاً لم يعتبر ولم يرعي، مازال مصرأ على قتل الغلام، ثم انظر فإن شدة حرمه على تحقيق مطلوبه من قتل هذا الغلام، والتخلص منه قد أعمته، فالغلام يلقنه أمراً من شأنه أن يؤمن الناس جميعاً.

فالأمر الطبيعي أنه بمجرد أن يسمع هذا الكلام، يقول: هذه لا تروج عليّ، لكنه عمي، لم يكن له هم إلا القضاء على هذا الغلام، فأعماه الله -عز وجل- ففعل ما طلب منه الغلام، ولهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: تجد الرجل أحياناً يكون صاحباً لك، ومصافياً، وبينك وبينه من الود والمؤاخاة ما لا يقدر قدره، فإذاولي شيئاً من الرئاسات تغير وتذكر، إلا من رحم الله -عز وجل-، فلربما لامه وتبرم به، وتعجب من إعراضه عنه، ومن تذكره له، ومن تغيره، ولا غرابة، فإن سكر الرئاسة أعظم من السكر الذي يحصل بسبب ما يتعاطاه من هذه الأمور التي تذهب عقله.

ولذلك خذل الله -عز وجل- هذا الملك، لم يتصرف التصرف الذي من شأنه أن يئد هذا الغلام وما يحمله من مبدأ، لأن يقول له: اذهب إلى أرض أخرى مثلاً، أو أن يحبسه ويكتم أمره عن الناس، فإن مثل هذه القضايا، ومثل هذه المشكلات قد تعالج بطريقة أو بأخرى، ويستغرب العلاء، لماذا لم يسلك هذا الطريق أو ذاك؟! لماذا يصر على معالجة المشكلة بمثل هذه الطريقة التي لا تزيدها إلا اشتعالاً، وتفاقماً؟!.

ولكن الله -عز وجل- إذا أعمى الإنسان يُقضى على المرء في أيام محنته** حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا وَإِيَّاكُمْ بِمَا سَمِعْنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ هَدَاةً مَهْتَدِينَ، وَصَلَى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.